

سقوط إمبراطورية الأكاسرة

الحلقة

18

«المدائن».. نهاية دولة الفرس وتحقيق نبوءة النبي



حكمة وكفاءة، فجعل على الكتيبة الأولى «كتيبة الأهوال» عاصم بن عمرو الملقب بذي البأس، وجعل على الكتيبة الثانية «الكتيبة الخرساء» القعقاع بن عمرو، ثم سار هو على بقية الجيش.

بعزمه على عبور دجلة إلى المدائن، فوجد منهم حماساً شديداً ورغبة أكيدة في السير إلى الفرس وفتح عاصمتهم المدائن، وقسم سعد جيشه إلى عدة كتائب، وجعل على رأس كل منها قائداً من أمهر رجاله، وأكثرهم

عشرين ميلاً إلى الجنوب. بعد فتح يهر سير أراء سعد أن يعبر بجنوده إلى المدائن، ولكنه وجد أن الفرس قد أخذوا السفن كلها حتى يمنعوهم من العبور إليهم. جمع سعد جنوده وأخبرهم

وسطروا أزوع البطولات، وتوالت انتصارات المسلمين على الفرس في القادسية ثم بَهر سير التي كانت ضاحية للمدائن على الضفة الغربية لدجلة، لا يفصلها عن المدائن سوى النهر، ولا تبعد عن بغداد باكتر من

بهذه المهمة الخطيرة فأشار عليه أصحابه بأن يؤمّر «سعد بن أبي وقاص».

وخرج سعد من المدينة إلى العراق في أربعة آلاف فارس، واستطاع سعد وجنوده أن يحققوا أعظم الأجماع،

«المدائن» هي عاصمة ملك فارس وكانت مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم، وسماها العرب المدائن لأنها سبع مدائن واسمها عند الفرنج (اكتزيغون)، بينها وبين بغداد 25 ميلاً. وبها طاق كسرى أو إيوان كسرى وهو قصر من قصور كسرى أنوشروان الذي تهدم وبقيت آثاره في مدينة المدائن. قدم «سعيد زهرة» إلى يهر سير فصالحه «شيرزاد» دهقان ساباط على تادية الجزية، وهزم زهرة كتيبة بنت كسرى التي تدعى «بوران» ثم زحف سعد على يهر سير فأرى المسلمون الإيوان (وهي تجاه الإيوان)، فقال ضرار بن الخطاب بن مرداس «الله أكبر. أبيض كسرى. هذا وعد الله ورسوله»، وكبر وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزل على المدينة.

وفي صفر دخل المسلمون «يهر سير» وكان سعد محاصراً لها، وأرسل الخيول فأغارت على من ليس له عهد فأصابوا 100.000 فلاح فاصاب كل واحد منهم فلاحاً فأرسل سعد إلى عمر يستأذن فاجابه (أن من جاء من كمن الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانة، ومن هرب فأدركتموه فشانكم به) فحلى سعد عنهم وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا ولم يدخل ذلك ما كان لأل كسرى فلم يبق غربي دجلة إلى أرض العرب سواي الأمان واغتبط بملك الإسلام وأقاموا على يهر سير،

الوعد بفتح الروم وبلاد فارس

جاء عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- أنه قال: (ما كان حين أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بحفر الخندق عرّضت لنا في بعض الخندق صخرة لا نأخذ فيها المعاول، فاشتكتنا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة ففسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة).

حصار القصر الأبيض

كان القصر الأبيض الحصن الوحيد الذي يوجد بداخله بعض الفرس المتحصنين الذين لم يشتركوا في القتال، يعز عليهم أن يفارقوه، وحاصر المسلمون القصر حصراً بسيطاً؛ لأنه لا يوجد بداخله أحد يضرب عليهم بالسهم أو غيره، لكن بداخله بعض الفرس، فيذهب إليهم سلمان الفارسي، ويقول لهم: أنا منكم، اقبلوا واحدة من ثلاث: إما الإسلام وتكونون منا لكم ما لنا، عليكم ما علينا، وإما الجزية ونمنعكم، وإما المنايذة. ويقبلون مهلة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث يخرج هؤلاء الفرس، ويقبلون دفع الجزية للمسلمين، فيدخل سعد بن أبي وقاص بعد فتح القصر، ويتبعه المسلمون داخل القصر الأبيض أو قصر إيوان كسرى، الذي لم يدخله أحد قبل ذلك غير الوفد المكون من أربعة عشر ذهبوا لزيارة كسرى منذ فترة يدعوهم إلى الإسلام، وكان دخول القصر في يوم الجمعة 19 من صفر سنة 16 هـ، وكان المسلمون قد أذنوا لإقامة صلاة الجمعة، وهذه أول مرة يصلي فيها المسلمون صلاة الجمعة منذ دخولهم أرض العراق، فمُنذ مُقدم خالد بن الوليد سنة 12 هـ حتى تلك اللحظة لم يصلوا الجمعة.

هروب الفرس

وعبر سعد نهر دجلة من أضيح مكان فيه بنصبحة سلمان الفارسي على خيولهم، فلما رأى الفرس ذلك هربوا، وكان الملك في مقدمة الهاربين وأخذوا ما استطاعوا من متاع، ودخل سعد بن أبي وقاص إيوان كسرى، وكان قبل أيام قليلة يهدد المسلمون ويتوعدهم من قصره الأبيض مقر ملك الأكاسرة، الذي كان آية من آيات الفخامة والبهاء، وعند دخوله إيوان كسرى تلا سعد قول الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك أو رثناها قوما آخرين فما يكتم عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)، «الداخن: الآيات 25 - 29»، وقال ابن الحاجب: صلى سعد صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينها.

بشرى النصر

وغنم المسلمون غنائم كثيرة في فتح المدائن، منها كتون كسرى وتاجه وثيابه وأساوره، وأخذ سراقته بن مالك سواري كسرى اللذين وعده بهما النبي، وكان سهم الفارس 12 ألف درهم، وأرسل سعد إلى عمر بن الخطاب رسولاً يبشّره بالنصر وبما حازوه من غنائم، ويطلب منه السماح لهم بمواصله الفتح في بلاد فارس، لكن عمر رفض ذلك، وقال له: وددت لو أن بيننا وبينهم سداً من نار، لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم، حسبنا من الأرض السواد - أي أرض العراق - إني أقرت سلامة المسلمين على الإنفال.



ضمت الغنائم سواري كسرى، فاعطى الفاروق السوارين لسراقة بن مالك؛ وفاء بوعد الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لسراقة عندما هاجر مع صاحبه أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فراراً من أذى قريش، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الحمد لله: سوارا كسرى بن هرم من في يدي سراقة بن مالك»، ونطبق الحزن والبكاء على عمر ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من أن أكون مثلك»، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، ومنعته عليك مني، وأعطيته لتمر بي..».

الأخر، ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، ونزل بقية أصحاب عاصم من الستمائة في دجلة فخاضوها حتى وصلوا إلى أصحابهم من الجانب الآخر، فقاتلوا مع أصحابهم حتى نفوا الفرس عن ذلك الجانب، وكانوا يسمون الكتيبة الأولى: كتيبة الأهوال، وأميرها عاصم بن عمرو. وبذلك تم فتح المدائن، أقوى وآخر معادل الفرس، وافتحتها انهارت دولة فارس. ويذكر ابن كثير في «البيداية والنهاية»، أن المسلمين ظفروا بمغانم كثيرة بفتح المدائن، من الذهب والفضة والثياب، فأرسل بها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث

الخيل الذكور، وأصحاب الخيل الإناث. فلما راهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا: ديوانا ديوانا. يقولون: مجابئين. ثم قالوا: والله ما تقاثلون إنسا بل تقاثلون جنا. ثم أرسلوا فرسانا منهم في الماء يلتقون أول المسلمين لمينعوهم من الخروج من الماء، فأمر عاصم بن عمرو وأصحابه أن يشعروا لهم الرماح، ويتوخوا الأعين، ففعلوا ذلك بالفرس، فقلعوا عيون خيولهم فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون إيقاف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم عاصم وأصحابه فساقوا وراءهم حتى طردوهم عن الجانب

عاصمة الفرس

ما أن انتهت معركة القادسية بين جيش المسلمين بقيادة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وجيش الفرس، حتى اتجهت الأنظار نحو عاصمة الفرس ومقر حكمهم وسكن الأكاسرة وهي منطقة المدائن، لكسر شوكة فارس إلى الأبد إحدى أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت. ففي مثل هذا اليوم 14 من شهر صفر سنة 16 هجرياً، أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابي سعد بن أبي وقاص بالاتجاه نحو «المدائن» عاصمة فارس لفتحها والسيطرة عليها، وبالفعل تم ذلك بعد مواجهات كثيرة في الطريق إليها مني فيها جيش الفرس بالهزائم.

وذكر الإمام الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، أن جيش المسلمين استطاع بعد ذلك محاصرة مدينة «يهر سير»، وأرسل قائد جيش المسلمين سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه الخيول فأغارت على من ليس له عهد، وأرسل سعد لهم يستأذنهم إما دفع الجزية أو الإسلام، وقد استمر الحصار لمدة شهرين كاملين. وقد أشار بعض المسلمين من الفرس على سعد بن أبي وقاص أن يستخدم المنجنيق لدك أسوار المدينة، ولم يكن العرب يعرفونه منه قبل، وبالفعل ظل جيش المسلمين يدك المدينة شهرين بالمجانيق ويديون اليهم بالدبابات فتشعلوا على المدينة 20 منجنيقاً فتشعلوا بها واشتد الحصار بإهل المدائن الغربية، فانهارت المدينة،

عزم سعد على العبور



عزم سعد بن أبي وقاص على قطع البحر وخطب في الجيش وندب الناس إلى العبور، وجعل عاصماً على الفراض ليمنعها وأن في الاقتحام وقال: «قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، والله ليضنن قوةً بالله العلي العظيم»، وتلاحق الناس في دجلة وكان الذي يسائر سعداً سلمان الفارسي فعامت به خيولهم وخرج الناس

سائمين وخيولهم تنفض آثارها وسما يوم عبورهم الدجلة (يوم الجرائم) لأنه لم يكن أحد يعبر إلا ظهرت له جرومه يسير معها وهي من القش المربوطة حزمًا. فلما لم يقدر الفرس على منع المسلمين من العبور هربوا إلى حلوان، فدخلها المسلمون ولم يجدوا بها أحداً وقد أخرج «يزنجر» عياله إلى «حلوان» فلحق بعياله ونزل سعد «القصر الأبيض» فاتخذ الإيوان مصلى وسرح في آثار القوم زهرة المقدمات.

إيوان كسرى

زعموا أنه تعاون على بناء إيوان كسرى الذي بالمدائن عدة ملوك وهو من أعظم الأبنية. ولما أراد كسرى بناء إيوانه أمر بشراء ماحوله من مساكن الناس وأرغبههم بالثمن الوافر وإدخاله في «الإيوان» وقيل إنه كان في جواره عجوز لها ديرة صغيرة فأرادوها على بيعها فامتنعت وقالت ماكنت لأبيع «جوار الملك بالدنيا جميعها»، فاستحسن هذا الكلام منها وأمر ببناء الإيوان وترك دارها في موضعها منه واحكام عمارتها. وقد كان في الإيوان

كتيبة الأهوال

وتقدمت الكتيبتان في إيمان وشجاعة؛ فلا البحر يخفيهم ولا الفرسان المتربصون بهم على الشاطئ الآخر يرهونهم.. وأسرع المسلمون يعبرون النهر بخيولهم حتى امتلات صفحة النهر بالخيول والفرسان والدواب، فلا يرى أحد الماء من الشاطئ لكثرة الخيل والفرسان؛ فلما رأى الفرس

المسلمين وقد خاضوا النهر إليهم راحوا يجمعون فرسانهم للتصدي لهم، ومنعهم من الخروج من الماء، واجتمع عدد كبير من فرسانهم حول الشاطئ مدججين بالسلاح يترقبون وصول المسلمين ليرشقوهم بالسهم والرمح، ويقضوا عليهم قبل أن يصلوا إلى الشاطئ.